إبراز معالم منهج ابن باديس في الإصلاح والتغيير من خلال تفسيره مجالس التذكير

عبداللطيف مكشرة

شبكة الألوكة
www.alukah.net

إبراز معالم منهج ابن باديس

في الإصلاح والتغيير من خلال تفسيره مجالس التذكير

عبداللطيف مكشرة

بسم الرحمن الرحيم الحمد لله والصلاة والسلام على رسول وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فمن أعماق المعا ة تنبعِث أصواتُ دعاة الإصلاح والتغيير، وبين أيدينا نموذجٌ جليلٌ، ومثالٌ جميل تقمَّص شخصَه العلامةُ الأديب والعالم الأريب عبد الحميد بن ديس ممن رام الإصلاح مقتفيًا طريقة أهل الأثر السالفين، عمدتُه في ذلك مبدأ إمام أهل السنة مالك بن أنس القائل: "لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلَح به أولها"، فكان لدعوته عظيمُ الأثر على قُطره خاصة وعلى المسلمين عامة، وسنسعى في هذه المقالة اللطيفة إلى إبراز معالم منهجه الإصلاحي من خلال تفسيره للقرآن الموسوم بـ"مجالس التذكير"، حسب خطة العمل التالية:

المحور الأول: بواعث الإصلاح.

[redacted]الإعراض عن تعلم عقيدة التوحيد من نصوص الكتاب والسنة.

مخالفة السنة النبوية والهدي المحمدي.

إهمالهم لأمر الاجتماع ونظامه.

التفريط في محاسن الأخلاق.

المحور الثاني: خطة الإصلاح:

1- **إصلاح التعليم أساس الصلاح.**
2- **تصحيح العقائد والأخلاق.**
3- **التحذير من مرض الجمود الفكري والركون إلى التقليد.**

المحور الثالث: وسائل الإصلاح.

1- **العمل على تغيير أساليب التربية والتعليم.**
2- **اعتماد وسائل مختلفة للتغيير.**

خاتمة:

المحور الأول: بواعث الإصلاح:

نجد العلامة ابن ديس – رحمه – يحاول إبراز ما هزَّ كيانه للمناداة لتغيير قائلًا: "رأينا كما يرى كل مبصر ما نحن عليه معشر المسلمين من انحطاط في الخلق، وفساد في العقيدة، وجمود في الفكر، وقعود عن العمل، وانحلال في الوحدة، وتعاكس في الوجهة، وافتزاق في السير، حتى

خارت النفوس القوية وفَترت العزائم المتقدة، وماتت الهِمم الو بة، ودُفنت الآمال في صدور الرجال، واستولى القنوط القاتل واليأس المميت، فأحاطت بنا الويلات من كل جهة، وانصبت علينا المصائب من كل جانب. ا هـ [1].

ويقول أيضًا: "لقد شعر المسلمون عمومًا لبلا والمحن التي لحقتهم، وفي أولها سيف الجور المنصب على رؤوسهم، وأدرك المصلحون منهم أن سببَ ذلك هو مخالفتهم عن أمر نبيهم صلى عليه وآله وسلم، فأخذت صيحات الإصلاح ترتفع في جوانب العالم الإسلامي في جميع جهات جهات المعمورة، تدعو الناس إلى معالجة أدوائهم بقطع سببها واجتثاث أصلها، وما ذلك إلا لرجوع إلى ما كان عليه محمد عليه الصلاة والسلام وما مضت عليه القرون الثلاثة المشهود لها منه لخير في الإسلام. اهـ [2].

ولأن كل إصلاح منشود لابد له من بواعث ودواعٍ، فنراه رحمه يتلمس بيانها انطلاقًا من قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (62) لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: 62، 63]، بغيتُه في ذلك تشخيص الوهن والداء الذي علا جسم الأمة، وبيان أسبابه والتي عد منها:

1- الإعراض عن تعلُّم عقيدة التوحيد من نصوص الكتاب والسنة:

يقول - رحمه - بخصوص هذا الانحراف: "وفي افتتاح الآ ت بقوله تعالى: **{لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا}** [الإسراء: 22].

وختمها بقولهَ تعالى: **{وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا }** [الإسراء: 39]، **بيان من الله تعالى لخلقه، بأن الدِّينَ هو أصل هذه الكمالات كلها، وهو سياج وقايتها،**

---

[1] آ ر ابن ديس: 24/3.

[2] مجالس التذكير: ص339.

وسور حفظها، وأن التوحيد هو ملاك الأعمال وقوامها، ومنه بدايتها وإليه نهايتها، وكذلك المسلم الموفق يبتدئ حياته بكلمة التوحيد حتى يموت عليها...؛ انتهى [3].

ويقول أيضًا: "أدلة العقائد مبسوطة في القرآن العظيم بغاية البيان، ونهاية التيسير، وأدلة الأحكام أصولها مذكورة كلها فيه، وبيانها وتفاصيلها في سنة النبي صلى عليه وسلم الذي أرسل ليبيّن للناس ما نزِّل إليهم، فحق على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة لعقائدها الدينية، وأدلة تلك العقائد من القرآن العظيم؛ إذ يجب على كل مكلف أن يكون في كل عقيدة من عقائده الدينية على علم، ولن يجد العامي الأدلة لعقائد سهلة قريبة إلا في كتاب ، فهو الذي يجب على أهل العلم أن يرجعوا في تعليم العقائد للمسلمين إليه.

أما الإعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية، فإنه من الهجر لكتاب وتصعيب طريق العلم إلى عباده، وهم في أشد الحاجة إليه، إليه، لقد كان من نتيجة هذا ما نراه اليوم في عامة المسلمين من الجهل بعقائد الإسلام وحقائقه؛ انتهى [4].

2- مخالفة السنة النبوية والهدي المحمدي:

يقول رحمه : "مخالفة السنة النبوية والهدي المحمدي، وما كان عليه رسول صلى صلى عليه وسلم في تنفيذ شرع وتطبيق أحكامه، وتمثيل الإسلام تمثيلًا عمليًّا؛ تلك المخالفة المخالفة هي سبب كل بلاء لحق المسلمين حتى اليوم، بحكم صريح هذه الآية، وقد ذكر المفسرون في تفسير الفتنة أشياء على وجه التمثيل لا على وجه الحصر والتحديد، فذكروا الكفر، والقتل، والاستدراج لنعم، وقسوة القلب من معرفة المعروف والمنكر، والطبع على القلب حتى لا يفقه شيئًا، وكل هذا قد أصاب المسلمين بسبب مخالفتهم، غير أن أعظم الفتنة – فيما نرى – هو ما قاله الإمام جعفر الصادق: "أن يسلِّط عليهم سلطان جائرٌ"، فإنه إذا جار السلطان – وهو من له السلطة في تدبير أمر الأمة والتصرف في شؤونها – فسد كل شيء، فسدت القلوب والعقول والأخلاق والأعمال والأحوال، وانحطَّت الأمة في دينها ودنياها إلى أحط الدرجات،

---

[4] مجالس التذكير: ص112.

[5] مجالس التذكير: ص 105.

ولحقها من جرائه كل شرٍّ وبلاء وهلاك، ثم يتفاوت ذلك الفساد بحسب ذلك الجور في قدره وسعته ومدة بقائه، هذا إذا كان ذلك الجائر من جنسها ويدين - بحسب ظواهره - دينَها، فكيف إذا لم يكن من جنسها ولا دينها في شيء؟! حقًّا إن أعظم ما لحق الأمم الإسلامية من الشر والهلاك كله جاءها على السلاطين الجائرين منها ومن غيرها، وهذا ما يشهد به ريخها في ماضيها وحاضرها، فما أصدق كلمة جعفر الصادق، وما أعمق نظره فيها! ومن أحق بمثلها من بيت النبوة ومعدن الحكمة عليهم الرضوان والرحمة؛ انتهى [5].

ثم يردف رحمه قائلًا: "من أبين المخالفة عن أمره وأقبحها الز دة في العبادة التي تعبد الله بها على ما مضى من سنته فيها، وإحداث محد ت على وجه العبادة في مواطن مرت عليه، ولم يتعبد بمثل ذلك المحدث فيها، وكلا هذين ز دة وإحداث وابتداع مذموم، يكون مرتكبه كمن يرى أنه اهتدى إلى طاعة لم يهتد إليها رسول صلى عليه وسلم، وسبق إلى فضيلة قصَّر رسول صلى عليه وسلم عنها، وكفى بهذا وحده فتنة وبلاءً، دع ما يجر إليه من من بلا أخرى؛ انتهى [6].

3- الإهمال لأمر الاجتماع ونظامه:

يرى العلامة ابن ديس رحمه أن إهمال المسلمين لأمر الاجتماع ونظامه هو سبب نكستهم، فيقول مبينًا لخطورة هذا الأمر: "إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم لله ورسوله إذا كانت لهم قوة، وإنما تكون لهم قوة إذا كان لهم جماعة منظمة تفكُّر وتدبُّر وتتشاوُر وتتآزُر، وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرة، متساندة في العمل عن فكر وعزيمة، ولهذا قرن في هذه الآية بين الإيمان لله ورسوله، والحديث عن الجماعة وما يتعلق لاجتماع، فيرشد هذا إلى خطر خطر أمر الاجتماع ونظامه، ولزوم الحرص والمحافظة عليه، كأصل لازم للقيام بمقتضيات الإيمان وحفظ عمود الإسلام؛ انتهى [7].

ثم يردف بعد ذلك لبيان أسباب هذا الإهمال، وهو يستحث أهل العلم للقيام بواجبهم في مقاومة الاستبداد وتعليم الناس قائلًا: "ما أُصيب المسلمون في أعظم ما أصيبوا به إلا هما لهم لأمر

---

[6] مجالس التذكير: ص338.

[7] مجالس التذكير: ص338.

[8] مجالس التذكير: ص 335.

الاجتماع ونظامه؛ إما ستبداد أئمتهم وقادتهم، وإما نتشار جماعتهم بضعف رُوح الدين فيهم، وجهلهم بما يفرضه عليهم، وما ذاك إلا من سكوت علمائهم وقعودهم عن القيام بواجبهم في مقاومة المستبدين وتعليم الجاهلين، وبث روح الإسلام الإنساني السامي في المسلمين، فعلى أهل العلم – وهم المسؤولون عن المسلمين بما لهم من إرث النبوة فيهم – أن يقوموا بما أرشدت إليه هذه الآية الكريمة، فينفخوا في المسلمين روح الاجتماع والشورى في كل ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم، حتى لا يستبد بهم مستبد، ولا يتخلف منهم متوانٍ، وحتى يظهر الخاذل لهم ممن ينتسب إليهم، فيُنبذ ويُطرح ويُستغنى عنه لله و لمؤمنين؛ انتهى [8].

4– التفريط في محاسن الأخلاق:

عند تفسير العلامة ابن ديس لقوله تعالى: **{وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا * ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا}** [الإسراء:37– 39].

وبعَد أنَ بيَّن – رحمه ـَ أن ضياع الأخلاَق هو مصدر كل شر بقوله: "إذا أعجب المرء بنفسه عمِي عن نقائصها، فلا يسعى في إزالتها، ولهى عن الفضائل، فلا يسعى في اكتسابها، فعاش ولا أخلاق له (كان) مصدرًا لكل شرٍ بعيدًا عن كل خير؛ انتهى [9].

جعل يتحدث عن الأمراض الخُلقية مبرزًا عظيم خطرها وشدة قبحها على مصير الأمم، رابطًا تصحيحها لقرآن بقوله: "... والثاني مرض النفوس: بفساد الأخلاق، وانحطاط الصفات، أما الأعمال فهي بعة لهما، فتصلُح بصلاحهما وتفسُد بفسادهما، والقرآن قد جاء ... مبينًا للأخلاق الفاسدة، وذاكرًا سوء أثرها وقبح مغبَّتها، مبينًا كذلك الأخلاق الصحيحة وعظيم نفعها، وحسن عاقبتها، فهذا شفاؤه للنفوس والعقول، وهو راجع إلى تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق، وبهما سلامة الأرواح وكمالها، وعليهما قوام الهيئة الاجتماعية وانتظامها؛ انتهى [10].

المحور الثاني: خطة الإصلاح:

---

[9] مجالس التذكير: ص 335.

[11] مجالس الذكر: ص108.

[10] مجالس التذكير: ص143. بتصرف

يرى العلامة ابن ديس رحمه أن أساس الإصلاح هو تقويم التعليم؛ لأنه أساس الأخلاق المتينة، ولا يستقيم إلا إذا كان على الطريقة النبوية صورة ومادة.

1- إصلاح التعليم أساس الصلاح:

يقول العلامة ابن ديس رحمه : "لن يصلح هذا التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه في مادته وصورته فيما كان يعلم صلى عليه وسلم وفي صورة تعليمه ... فماذا كان يعلم وكيف كان يعلم؛ انتهى[11]، وأن النهل من العلم علم الكتاب والسنة، والفهم الصحيح لهما هو سبيل النجاة، فيقول: "لا نجاة لنا من هذا التيه الذي نحن فيه والعذاب المنوع الذي نذوقه ونقاسيه إلا لرجوع إلى القرآن إلى علمه وهديه، وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه، والتفقه فيه وفي السنة النبوية وشرحه وبيانه، والاستعانة على ذلك خلاص القصد، وصحة الفهم، والاعتضاد نظار العلماء الراسخين، والاهتداء بهديهم في الفهم عن رب العالمين؛ انتهى[12]، وفي تفسيره لقول تعالى: **{وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}** [الإسراء: **36**]، يقول: "العلم الصحيح، والخلق المتين هما الأصلان اللذان ينبني عليهما كمال الإنسان، وبهما يضطلع عباء ما تضمنته الآ ت المتقدمة من أصول التكليف، فهما أعظم مما تقدمهما من حيث توقُّفه عليهما، فجيء بهما بعده؛ ليكون الأسلوب من ب النزقي من الأدنى إلى الأعلى، ولما كان العلم أساس الأخلاق قدمت آيتُه على آيتها تقديمَ الأصل على الفرع؛ انتهى[13].

ويقول رحمه : "سلوك الإنسان في الحياة مرتبط بتفكيره ارتباطًا وثيقًا: يستقيم ستقامته ويعوج ويعوج عوجاجه، ويُثمر ثماره، ويعقم بعقمه؛ لأن أفعاله شئة عن اعتقاداته، وأقواله إعراب عن عن تلك الاعتقادات، واعتقاداته ثمرة إدراكه الحاصل عن تفكيره ونظره، وهذه الإدراكات الحاصلة عن التفكير والنظر ليست على درجة واحدة في القوة والضعف، فمنها ما هو قوي معبر، ومنها ما هو ضعيف ساقط عن الاعتبار؛ انتهى[14].

---

[11] آ ر ابن ديس: 217/3.

[12] مجالس الذكر: ص175.

[13] مجالس الذكر: ص99.

[14] مجالس الذكر: ص102.

2- تصحيح العقائد والأخلاق:

يرى العلامة ابن ديس رحمه أن تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق؛ بهما سلامة الأرواح وكمالها، وعليهما قوام الهيئة الاجتماعية وانتظامها؛ فيقول في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} [يونس: 57].

ومنها: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} [فصلت: 44].

أفادت الآيات كلها أنه شفاء لأهل الإيمان الذين يؤمنون دون غيرهم، فإنهم عراضهم عنه كانوا من الخاسرين، وجاءت آية يونس بتقييد الشفاء بها في الصدور الذي هو مستقر العقائد؛ لأن ذلك هو المقصود الأول من هداية القرآن، وأصل لغيره، فإنه إذا شُفيت الصدور من عقائد السوء، ونزعات الشكوك، واعتقدت الحق، وارتبطت على اليقين، زكت النفوس واستقام سلوك الإنسان فرده وجماعاته، ورقي درجات الكمال، فلا ينافي ذلك أن القرآن شفاء أيضًا للنفوس من سيئ الأخلاق كما هو مقتضى الإطلاق في آية الإسراء هذه، وآية السجدة؛ لأن الأخلاق شئة عن العقائد ولازمة لها، ولأنهما كليهما لا تكمُل النفس الإنسانية إلا لشفاء فيهما؛ انتهى [15].

ويقول أيضًا: "شفاء العقائد والأخلاق أساس الأعمال والمجتمع، هذه الأمراض لا تكاد تخلو آيات القرآن من معالجتها، وبيان ما هو شفاء لها، ولا شفاء لها إلا لقرآن، والبيان النبوي راجع إلى القرآن، ومن طلب شفاءها في غير القرآن، فإنه لا يزيدها إلا مرضًا، فهذه الأمم الغربية بسجونها، ومشانقها، ومحاكمها، وقوتها، قد امتلأت لجنايات والفظائع المنكرة التي تقشعر تقشعر منها الأبدان، وهذه الممالك الإسلامية التي تقيم الحدود القرآنية كالمملكة الحجازية، والمملكة اليمانية، قد ضرب الأمن رواقه عليهما، واستقرت السكينة فيهما دون سجون ولا مشانق مثل أولئك؛ وما ذلك إلا لأنهم داوَوْا الملك بدواء القرآن فكان الشفاء التام؛ انتهى[16].

---

[15] مجالس التذكير: ص143.

[16] مجالس التذكير: ص144.

3- التحذير من مرض الجمود الفكري والركون إلى التقليد:

فالمتأمل لكلامه رحمه يرى تحذيره رحمه من مغبة هذا العائق الذي جثم على روح روح الإبداع والتجديد، فحال دون حصول الإصلاح المنشود، مخاطبًا عامة الأمة علماء وطلاب وعامة، **فيقول محذرا للعلماء**: "ومما ينبغي لأهل العلم أيضًا – إذا أفتوا أو أرشدوا – أن يذكروا أدلة القرآن والسنة لفتاويهم ومواعظهم؛ ليقربوا المسلمين إلى أصل دينهم ويذيقوهم حلاوته، ويعرفوهم منزلته، ويجعلوه منهم دائمًا على ذكر، ويُنيلوهم العلم والحكمة من قريب، ويكون لفتواهم ومواعظهم رسوخ في القلوب، وأثر في النفوس، فإلى القرآن والسنة – أيها العلماء – إن كنتم للخير تريدون؛ انتهى [17]. ويقول محذرًا لطلاب العلم بقوله: "... وندعو الطلبة إلى الفكر والنظر في الفروع الفقهية، والعمل على ربطها دلتها الشرعية، ونرغِّبهم في مطالعة كتب الأقدمين ومؤلفات المعاصرين، لِما قمنا بهذا وأعلناه، قامت علينا وعلى من وافقنا قيامة أهل الجمود والركود ...؛ انتهى[18]، ويقول محذرًا لعامة الأمة: "بقدر ما كان تمسك الأمة سباب العلم كان رفضُها للجمود والخمود والخرافات والأوضاع الطرقية المتحدرة للفناء والزوال، حتى أصبح القطر الجزائري كله يكاد لا تخلو بيت من بيوته ممن يدعو إلى الإصلاح، وينكر الجمود والخرافة ومظاهر الشرك القولي والعملي، وأصبحت البدع والضلالات تجد في عامة الناس من يقاومها وينتصر عليها؛ انتهى[19].

المحور الثالث: وسائل الإصلاح:

نرى أن الإمام ابن ديس رحمه تعالى شرع في تطبيق نهجه الإصلاحي عبر خطة محكمة مرجعها طريقة السلف في التغيير، مستعينًا في ذلك بما أُتيح له من وسائل ممكنة من خلال:

1- العمل على تغيير أساليب التربية والتعليم:

يقول ابن ديس رحمه : "لما قفلنا من الحجاز وحللنا بقسنطينة عام 32، وعزمنا على القيام لتدريس، أدخلنا في برمج دروسنا تعليم اللغة وأدبها والتفسير والحديث والأصول

---

[17] مجالس التذكير: ص105.

[18] آثار ابن ديس: 27/3.

[19] آثار ابن ديس: 359/4.

ومبادئ التاريخ، ومبادئ الجغرافية ومبادئ الحساب، وغير هذا، ورأينا لزوم تقسيم المعلمين إلى طبقات، واختز للطلبة الصغرى منهم بعض الكتب الابتدائية التي وضعتها وزارة المعارف المصرية، وأحدثنا تغييرًا في أساليب التعليم، وأخذ نحث على تعلُّم جميع العلوم للسان العربي والفرنسي، ونحبِّب الناس في فهم القرآن، وندعو الطلبة إلى الفكر والنظر في الفروع الفقهية، والعمل على ربطها دلتها الشرعية، ونرغِّبهم في مطالعة كتب الأقدمين ومؤلفات المعاصرين، لما قمنا بهذا وأعلناه قامت علينا وعلى من وافقنا قيامة أهل الجمود وا لركود، وصاروا يدعوننا للتنفير والحط منا "عبداويين"، دون أن أكونو يوم جئت قسنطينة، قرأت كتب الشيخ محمد عبده إلا إلا القليل، فلم نلتفت إلى قولهم، ولم نكنزث لإنكارهم، على كثرة سوادهم وشدة مكرهم وعظيم كيدهم، ومضينا على ما رسمنا من خطة وصمد إلى ما قصد من غاية، وقضيناها عشر سنوات في الدرس، لتكوين نشء علمي لم نخلط به (غيره) من عمل آخر، فلما كملت العشر وظهرت – بحمد – نتيجتها رأينا واجبًا علينا أن نقوم لدعوة العامة إلى الإسلام الخالص والعلم والعلم الصحيح إلى الكتاب والسنة، وهدى صالح سلف الأمة، وطرح البدع والضلالات ومفاسد العادات، فكان لزامًا أن نؤسس لدعوتنا صحافة تبلغها للناس، فكان (المنتقد) وكان (الشهاب)، ونهض كُتاب القُطر ومفكروه في تلك الصحف لدعوة خيرَ قيامٍ، وفتحوا بكتاب وسنة رسوله صلى عليه وآله وسلم أعينًا عميًا وآذاً صمًّا، وقلوً غلفًا، وكانت هذه المرة المرة غضبة الباطل أشدَّ، ونطاق فتنته أوسع، وسواد أتباعه أكثرَ، وتمالأ على دعاء الحق الجمود والبدعة، وعليها بنيت صروح من الجاه، ومهما جرت أنهار من المال، وأصبحت الجماعة الداعية إلى يدعون من الداعين إلى أنفسهم "الوهابيين"، ولاو ما كنت أملك يومئذ كتاً واحدًا لابن لابن عبدالوهاب، ولا أعرف من ترجمة حياته إلا القليل، و ما اشنزيت كتاً من كتبه إلى اليوم، وإنما هي أُفَيْكاتُ قوم يهرفون بما لا يعرفون، ويحاولون من إطفاء نور ما لا وسنعرض عنهم اليوم وهم يدعوننا "وهابيين"، كما أعرضنا عنهم لأمس وهم يدعوننا "عبداويين"، ولنا أسوة بمواقف أمثالنا مع أمثالهم من الماضين؛ انتهى [20].

2- الوسائل المعتمدة:

[20] آ ر ابن ديس: 27/3.

ولتوسيع دائرة الإصلاح المنشود وبثّه على أوسع نطاق، نجد العلامة ابن ديس رحمه قد اعتمد وسائل مختلفة نذكر منها:

أ- التوسل بالعمل الجمعوي:

✓ **تأسيس جمعية علماء المسلمين الجزائريين:** لقد عمل الشيخ رحمه على ولوج العمل الجمعوي من خلال سيسه بمعية بعض إخوانه من أهل العلم لجمعية دعوية تضم علماء قطره، واختير ليكون على رأسها، فيقول رحمه في هذا الصدد: "كنا نعلم من يوم سيس هذه هذه الجمعية رغم تفاؤلنا، ما ستلقاه مثل كل مشروع عظيم من صعو ت وعقبات، ولكننا ما كنا نحسب أن حظها من ذلك يكون إلا من خارجها، ولكن الواقع جاء بخلاف ذلك، وكانت مصاعب الجمعية ومتاعبها من داخلها"[21]، ويقول أيضًا: "إن أعداء الأمة الذين تمثلهم الجرائد الاستعمارية الكبرى هنا وهنالك، ويصدع مرهم كراسي متنوعة، ما فتئوا يوالون ضر تهم، ويعيدون هجماتهم على الجمعية؛ لأنهم يرون فيها حياة الأمة ويشاهدون فيها السد الحصين دون ما يرغبون من ذو ن الأمة وانحلالها لإفنائها وابتلائها، وتنقُّصها من أطرافها، فكل ما تجتازه الأمة اليوم وما تعانيه، وما تلاقيه هو ما تجتازه الجمعية، وما تعانيه وما تلاقيه على أبلغه وأشده؛ لأن الجمعية هي الأمة، والأمة هي الجمعية؛ انتهى [22].

ويقول رحمه عن ر سته للجمعية: "شاء الإخوان أن يجدِّدوا لهذا العاجز حمل مسؤولية الر سة رغم امتناعه، و لقد كنت أَوَدُّ لو صُرفت عني، و لولا خوفي من عظيم المسؤولية عند ، ما ، ما قبلت من إخواني ذلك رغم شدة احتزامي لإرادتهم، وتقديري لإشارتهم، فاللهَ نسأل لنا ولهم أن يعيننا جميعًا على القيام بقوة وأمانة وإخلاص بهذا العبء الثقيل؛ انتهى [23].

✓ **تأسيس جمعية التربية والتعليم الإسلامية: كان الغرض من** سيسه لهذه الجمعية وترؤسه لأعضائها ظاهرًا، وقد أفصح عنه بقوله: "وغرض الجمعية مفهومٌ من اسمها ومن مواد قانونها الأساسي الذي صادقت عليه الحكومة:

---

[21] آ ر ابن ديس: 18/3.

[22] آ ر ابن ديس: 359/3.

[23] آ ر ابن ديس: 23/3.

المادة الثانية: مقصود الجمعية هو نشر الأخلاق الفاضلة، والمعارف العربية الفرنساوية والصنائع اليدوية بين أبناء وبنات المسلمين.

المادة الثالثة: تسعى الجمعية لقصدها هذا، أولًا: بتأسيس مكتب للتعليم، ثانيًا: بتأسيس ملجأ للأيتام. ثالثًا: بتأسيس د للمحاضرات، رابعًا: بتأسيس معمل للصنائع، خامسًا: رسال التلامذة على نفقتها إلى الكليات والمعامل الكبرى؛ انتهى [24].

ب– التوسل بالعمل الصحفي:

1 – تأسيسه لصحيفة السنة النبوية المحمدية:

ولتعزيز الدعوة إلى السنة النبوية عمل رحمه على سيس صحيفة سمها، وقد ورد ذلك في قوله: قوله: "عرفنا – مما هدا إليه ربنا – الحق الذي لا تيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والهدى والهدى الذي ما بعده إلا الضلال، وسبيل النجاة التي ما في كل مخالفتها إلا الهلاك، والدواء الذي بدونه لا تبرأ النفوس من أدوائها، ولا تظفر لقليل من شفائها، فحمد على ما هدا ، وعقد وعقد العزم على المحافظة على هذه النعمة وشكرها، وما شكرها إلا في العمل بها وبنشْرها، وأشفقنا على أنفسنا من تبعة الكتمان، وما جاء فيمن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه من ضعف الإيمان، فأخذ على أنفسنا دعوة الناس إلى السنة النبوية المحمدية وتخصيصها لتقدم والأحجية، فكانت دعوتنا – علم – من أول يوم إليها والحث على التمسك والرجوع إليها، ونحن اليوم على ما كنا سائرون وإلى الغاية التي سعينا إليها قاصدون، وقد زد من فضل أن أسسنا هذه الصحيفة ا لزكية، وأسميناها: (السنة النبوية المحمدية)؛ لتنشر على الناس ما كان عليه النبي – صلى عليه وآله وسلم – في سيرته العظمى، وسلوكه القويم، وهديه العظيم؛ انتهى [25].

2- إصداره لمجلة المنتقد:

---

[24] آ ر ابن ديس: 184/3.

[25] آ ر ابن ديس: 24/3.

وقد ورد ضمن الوسائل أيضًا اسم مجلة المنتقد كلسان للشباب الجزائري في قوله: "وبصفة عامة فإن "الشهاب"، ومن قبله "المنتقد"، يمثلان لسان الشباب الناهض لوطن الجزائري؛ انتهى (26).

(26).

3- إصداره لمجلة الشهاب:

وقد ورد ضمن آ ره رحمه استصداره لمجلة الشهاب لأجل تعزيز ترسانة الوسائل المعينة على الإصلاح المنشود، وذلك في قوله: "استمر" الشهاب في صورة جريدة إلى غاية رمضان 1347 هـ فيفري 1929م، وفي هذه السنة تحول إلى مجلة شهرية علمية تبحث في كل ما من شأنه أن "يُرقِّي المسلم الجزائري" ومبدؤها في الإصلاح الديني والدنيوي هو: (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، و(الحق والعدل والمؤاخاة في إعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات)...؛ انتهى [27].

ويقول رحمه أيضًا: "إن الزمان - زميلي - يسير ولا يقف، وسنن الكون فذة لا تتخلف، والويل لمن قصد أو تعامى، تقبلوا – سيدي - احتزام زميلكم **صاحب مجلة الشهاب** عبد الحميد بن ديس؛ انتهى [28].

---

[26] آ ر ابن ديس: 85/1.

[27] آ ر ابن ديس: 85/1.

[28] آ ر ابن ديس: 374/3.

خاتمة:

لا شك أن ديننا الإسلامي الحنيف جاء بكل خير وصلاح للبشرية؛ فمن أراد أن يحوز خيري الدنيا والآخرة، رام توجيهاته الحكيمة؛ لأنها من لدن حكيم خبير، ومن رام غيرها من مخلفات البشر الفكرية، فلا ريب أنه سيتجرع مرارة البؤس والشقاء، ويصطلي بخيبة الفشل ولؤم الخلل، وما رامه العلامة ابن ديس رحمه ، هو حمل مشعل الإصلاح على طريقة رسول صلى عليه وسلم الذي حَرَف قبائل مُضر من السجود للحجر إلى عبادة رب البشر، والذي كان قوله: "إنما بُعثت لأُتمم مكارم الأخلاق"، فجاءت طريقة الشيخ محكمة وخطته في الإصلاح والتجديد مسهِمة، فرحمه وأجزل له المثوبة وجميع علماء المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

المراجع والمصادر:

1- **تفسير ابن باديس** ((في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)): لعبد الحميد محمد بن ديس الصنهاجي ت: 1359 هـ، المحقق: علق عليه وخرج آ ته وأحاديثه أحمد شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، 1416هـ - 1995م، عدد الأجزاء: 1.

2- **آثَارُ ابْنُ بَادِيسَ**: لعبد الحميد محمد بن ديس الصنهاجي ت: 1359هـ، المحقق: عمار طالبي الناشرَ: دار ومكتبة الشركة الجزائرية الطبعة: الأولى (عام 1388 هـ - 1968 ميلادية) عدد الأجزاء: 4.

فهرس الموضوعات:

المحور الأول: بواعث الإصلاح: ص02

1-الإعراض عن تعلم عقيدة التوحيد من نصوص الكتاب والسنة: ص03

2- مخالفة السنة النبوية والهدي المحمدي: ص04

3-الإهمال لأمر الاجتماع ونظامه:.....ص05

4-التفريط في محاسن الأخلاق:.....ص06

المحور الثاني: خطة الإصلاح.....ص07

1-إصلاح التعليم أساس الصلاح: ص07

2-تصحيح العقائد والأخلاق: ص08

3-التحذير من مرض الجمود الفكري والركون إلى التقليد:.....ص09

المحور الثالث: وسائل الإصلاح: ص11

1-العمل على تغيير أساليب التربية والتعليم:.....ص11

2-الوسائل المعتمدة.....ص12

أ-التوسل لعمل الجمعوي:.....ص12

1- سيس جمعية علماء المسلمين الجزائريين:.....ص12

2- سيس جمعية التربية والتعليم الإسلامية:.....ص13

ب-التوسل لعمل الصحفي:.....ص14

1- سيسه لصحيفة السنة النبوية المحمدية: ص14

2-إصداره لمجلة المنتقد: ص14

3-إصداره لمجلة الشهاب: ص15

خاتمة:.....ص15

المراجع والمصادر: ص16

فهرس الموضوعات: ص17